يَـمُـوتُ بـهِ غَـيـظـاً عـلـى الـدهـرِ أهْـلُـهُ
كـمَـا مَـاتَ غَـيـظـاً فـاتـكٌ وَشَـبِـيـبُ(١)
إذا مـا عَـدِمـتَ الأصْـلَ وَالـعـقـلَ والـنّـدى
فَـمَـا لـحَـيَـاةٍ فـي جَـنَـابِـكَ طِـيـبُ(٢)

لا بدَّ للإنسان من ضجعة

توفيت عمة عضد الدولة ببغداد فقال يرثيها ويعزيه بها:

[السريع]

آخِـرُ مَـا الـمَـلْـكُ مُـعَـزَّى بِـهِ
هَـذَا الَّـذِي أثَّـرَ فـي قـلْـبِـهِ(٣)

= جبان. الرحيب: الواسع. انقلبت الموازين، والهجاء كهف مظلم، تنكشف فيه العورات، وتستحيل فيه الفضائل إلى رَذائل فالآن كافور أسود يجرّ عبوديته معه حيثما حلّ، عبوديّة ممقوتة مرذولة، ولقد تقلّص قلبه وانكمش على ذاته وأغلق على جهل وحماقة وجبن، واتسع بطنه ليستوعب جهلاً وجشعاً لا حدود له.

(١) إنه مقياس غير عادل؛ فالدهر مخطئ، إذ جعل كافوراً ملكاً على سادة قتلهم الغيظ وسوء حظوظهم تماماً كما مات فاتك وهو فاتك الرومي، الملقب بالمجنون لشجاعته، ويقال له فاتك الكبير: ممدوح المتنبي. أخذ من بلاد الروم صغيراً، وتعلم الخط في فلسطين. وكان في خدمة الإخشيد فأعتقه وأقطعه «الفيوم» وأعمالها، فأقام بها. توفي سنة ٣٥٠هـ = ٩٦١م. انظر ترجمته في وفيات الأعيان ١: ٤٠٦. وشبيب هو: شبيب بن يزيد بن نعيم بن قيس الشيباني، أبو الضحاك: من أبطال العالم، وأحد كبار الثائرين على بني أمية. التقاه الحجاج بن يوسف، وخبر موته أنه مرّ بجسر دجيل (في نواحي الأهواز) فنفر به فرسه، وعليه الحديد الثقيل من درع ومغفرة وغيرهما، فألقاه في الماء فغرق سنة ٧٧هـ = ٦٩٦م. انظر ترجمته في وفيات الأعيان ١: ٢٢٣، البيان والتبيين ١: ٧١.

(٢) يخاطب الشاعر مهجوه وقد جرّده من كلّ فضيلة؛ إنه لا أصل له، ضائع النسب، فاقد العقل يتساوى مع البهائم والحيوانات، ينساق بغرائزه، بخيل نتن، تشنَّجت يداه عن كلّ مكرمة، لذا فالحياة إلى جانبه جحيم، لا رواء فيها، دائمة الجفاف.

(٣) يدعو الشاعر للملك أن يجعل اللّه تعالى موت عمته آخر حادث أليم يعزّى به فلا تنزل الأحزان بساحته بعد ذلك.

لَا جَـــزَعـــاً بَـــلْ أَنَـــفـــاً شَـــابَـــهُ
أَنْ يَـقْـدِرَ الـدَّهْـرُ عَـلَـى غَـصْـبِـهِ(١)
لَـــوْ دَرَتِ الـــدُّنْـــيـــا بِـــمَـــا عِـــنْـــدَهُ
لَاسْـتَـحْـيَـتِ الأيَّـامُ مِـنْ عَـتْـبِـهِ(٢)
لَـعَـلَّـهَـا تَـحْـسَـبُ أَنَّ الَّـذِي
لَـيْـسَ لَـدَيْـهِ لَـيْـسَ مِـنْ حِـزْبِـهِ(٣)
وَأَنَّ مَـــنْ بَـــغْـــدَادُ دَارٌ لَـــهُ
لَـيْـسَ مُـقِـيـمـاً فـي ذَرَى عَـضْـبِـهِ(٤)
وَأَنَّ جَـــدَّ الـــمَـــرْءِ أَوْطَـــانُـــهُ
مَـنْ لَـيْـسَ مِـنْـهَـا لَـيْـسَ مِـنْ صُـلْـبِـهِ(٥)
أَخَـــافُ أَنْ تَـــقْـــطَـــنَ أعْـــدَاؤُهُ
فَـيُـجْـفِـلُـوا خَـوْفـاً إِلَـى قُـرْبِـهِ(٦)

---

(١) جزعاً: خوفاً. الأنف: الحميّة. شابه: مازجه. لقد ألمّ به ما يؤلم فحزن ولم يجزع؛ فهو شجاع لا يعرف الخوف إلى قلبه سبيلاً، ولكنها الحميّة، كيف استطاع الموت أن يخترم إحدى قريباته وينتزعها من بين يديه. وهو الحامي لحريمه.

(٢) و (٣) يعلّل الشاعر ما حدث بأن الدنيا تجهل مدى صلة الملك بالمتوفاة، ولو علمت ذلك لتركت عمته حياءً منه واجتناباً لعتبه وسخطه، ولكن ما حصل إنما كان سوء ظن الدنيا، فعمّة الملك كانت في بغداد بعيدة عن حماه، لذا استسهلت الدنيا انتزاعها، ولم تكن ضمن حريمه.

(٤) الذرى: الكتف. العضب: السيف البتّار، يتابع الشاعر تعليله أن بَغداد لم تكن دار حماه، وإنما ساعد على ذلك بُعد المتوفاة عن سلطة الملك، فسيفه قادر على حماية من يرعاه في دياره.

(٥) يروى «حدّ» بدلاً من «جد». وقد يظن الدهر أن أبناء البلد الواحد أبناء جد واحد، فمن لم يكن كذلك، فلا رابط بينه وبين جدّه. وعليه فإن الأيام قد اعتقدت أن المتوفاة ليست من أهل بيته فانتزعتها ولم ترع قرابته.

(٦) أجفل: سارع في الهرب. يخاف الشاعر أن ينتبه أعداء الملك أن حماه لا يجرؤ الموت وزبانيته من الاقتراب منه، فيلوذون إلى حماه، فيشملهم بحمايته ورعايته وينعمون بالسلام.

لا بُـدَّ لِـلْإِنْـسَـانِ مِـنْ ضَـجْـعَـةٍ
لَا تَـقْـلِـبُ الـمُـضْـجَـعَ عَـنْ جَـنْـبِـهِ(١)
يَـنْـسَـى بِـهَـا مَـا كَـانَ مِـنْ عُـجْـبِـهِ
وَمَـا أَذَاقَ الـمَـوْتُ مِـنْ كَـرْبِـهِ(٢)
نَـحْـنُ بَـنُـو الـمَـوْتَـى فَـمَـا بَـالُـنَـا
نَـعَـافُ مَـا لَا بُـدَّ مِـنْ شُـرْبِـهِ(٣)
تَـبْـخَـلُ أَيْـدِيـنَـا بِـأَرْوَاحِـنَـا
عَـلَـى زَمَـانٍ هِـيَ مِـنْ كَـسْـبِـهِ(٤)
فَـهٰـذِهِ ٱلْأَرْوَاحُ مِـنْ جَـوِّهِ
وَهٰـذِهِ ٱلْأَجْـسَـامُ مِـنْ تُـرْبِـهِ(٥)
لَـوْ فَـكَّـرَ الْـعَـاشِـقُ فِـي مُـنْـتَـهَـى
حُـسْـنِ الَّـذِي يَـسْـبِـيـهِ لَـمْ يَـسْـبِـهِ(٦)

---

(١) و (٢) إنها الحياة، والموت آتٍ لا محالةَ، وكلّ شيء يتبخّر إذا نزل الموت بالمرء فيذهب ما قدّمه وحصّله وينسى بموت صاحبه؛ فإذا بكلّ مظاهر الكبرياء والزيف تتبخّر، وكأنّ المرء ما عاش ليتجرّع غصّة ما بعدها غصّة، وهو في النزع الأخير.

(٣) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٤٨. وبنظرة تشاؤمية، يقرّ الشاعر ما لا بدّ منه؛ فالإنكار لا ينفع، وموج البشر يتلاحق أمام أعينهم، لقد رحل الأجداد، والدائرة تدور، ولا بدّ من يوم المعاد إلى خالق العباد، مهما امتدّ العمر في بني الإنسان.

(٤) وردت الأبيات الخمسة التالية في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٤٨. من طبيعة البشر الحفاظ على الحياة، وكلهم يضنّ بنفسه، والحقيقة أن المرء ضيف على هذه الحياة، ولم يكن بمقدور الإنسان أن يمتنع عن القانون الأزلي لهذا الوجود، ولا بدّ من ردّ الأمانة إلى واهبها؛ فالموت مقدّر محتّم.

(٥) يعرّج الشاعر على مفهوم فلسفي للطبيعة البشرية، فالروح عالم شفاف لطيف حلّت بالجسد المادة الكثيفة الترابية، فكان آدم دماً وجسداً وروحاً ونفساً؛ إذاً فالمادة الأولى ترابية.

(٦) ما يترك في النفس أن الجمال يعشقه البشر، وأجمل ما فيه أنه سرعان ما يزول، =

لَـمْ يُـرَ قَـرْنُ الـشَّـمْـسِ فِـي شَـرْقِـهِ
فَـشَـكَّـتِ ٱلْأَنْـفُـسُ فِـي غَـرْبِـهِ(١)
يَـمُـوتُ رَاعِـي الـضَّـأنِ فِـي جَـهْـلِـهِ
مَـوْتَـةَ جَـالِـيـنُـوسَ فِـي طِـبِّـهِ(٢)
وَرُبَّـمَـا زَادَ عَـلَـى عُـمْـرِهِ
وَزَادَ فِـي ٱلْأَمْـنِ عَـلَـى سِـرْبِـهِ(٣)
وَغَـايَـةُ الـمُـفْـرِطِ فِـي سِـلْـمِـهِ
كَـغَـايَـةِ الـمُـفْـرِطِ فِـي حَـرْبِـهِ(٤)
فَـلَا قَـضَـى حَـاجَـتَـهُ طَـالِـبٌ
فُـؤَادُهُ يَـخْـفِـقُ مِـنْ رُعْـبِـهِ(٥)

= والنفس نزّاعة إلى الجمال، فتحسّ ألم الفقد؛ ولو استمرّ الجمال لفقد الإحساس به مع طول المعاشرة والألفة؛ لذا لو فكر العاشق أن جمال محبوبته زائل لتنكّب عن طريق يسلكه بدافع الشوق وحبّ التملّك، ولو تيقّن أن ذلك مرهون بوقت محدّد لفجعته الحقيقة.

(١) ورد البيت في: دلائل الإعجاز: ٩٢، أسرار البلاغة، للجرجاني: ٣٥٥. انبثاق الحياة في كلّ شيء إيذان بحتمية فناء الوجود، فالفجر الضاحك بدء المساء الحالك السواد.

(٢) الموت لغة يقرأها كل مخلوق، سواء أكان جاهلاً لا يعرف شيئاً أم كان طبيباً بارعاً، يعمل على شفاء المرض، ومن المضحك المبكي أن الطبيب يداوي مرضاه وقد يموت مريضاً.

(٣) وردت الأبيات الثلاثة التالية في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٤٩. ومن الجائز أن يعيش الراعي أكثر من الطبيب، ويستزيد في رعيته، بينما يموت الطبيب قبل الراعي؛ ذلك أن مشاغله واهتماماته المتعدّدة وقلقه الدائم تُودي به إلى التهلكة بسرعة.

(٤) والمبالغة في الحرص والخوف من الموت من المرء لا تدفع عنه الموت تماماً كإنسان يخاطر بنفسه ويندفع في حروبه غير هيّاب، وخوف متوقع الموت. فكلاهما لا محالة زائلان ومصيرهما واحد؛ إنه الموت.

(٥) إن الجبان لا يمكن أن يحقّق آماله في هذا الوجود؛ ذلك أن خوفه من كلّ ما يرعبه يشلُّ إرادته ويفلّ عزيمته، ولذا فعلى المرء ألّا يخاف من الموت الآتي حتماً وأن يخوض بحر الحياة بعزم وقوّة لينتصر على الموت المادي ويبقى صيته يملأ الدنيا طالما أن الحياة على الأرض تمور بالبشر.

أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ لِشَخْصٍ مَضَى
كَانَ نَدَاهُ مُنْتَهَى ذَنْبِهِ(١)
وَكَانَ مَنْ عَدَّدَ إِحْسَانَهُ
كَأَنَّهُ أَفْرَطَ فِي سَبِّهِ(٢)
يُرِيدُ مِنْ حُبِّ الْعُلَى عَيْشَهُ
وَلَا يُرِيدُ الْعَيْشَ مِنْ حُبِّهِ(٣)
يَحْسَبُهُ دَافِنُهُ وَحْدَهُ
وَمَجْدُهُ فِي الْقَبْرِ مِنْ صَحْبِهِ(٤)
وَيُظْهِرُ التَّذْكِيرُ فِي ذِكْرِهِ
وَيُسْتَرُ التَّأْنِيثُ فِي حُجْبِهِ(٥)
أُخْتُ أَبِي خَيْرِ أَمِيرٍ دَعَا
فَقَالَ جَيْشٌ لِلْقَنَا لَبِّهِ(٦)
يَا عَضُدَ الدَّوْلَةِ مَنْ رُكْنُهَا
أَبُوهُ وَالْقَلْبُ أَبُو لُبِّهِ(٧)

(١) و (٢) يطلب الشاعر غفران اللّه تعالى للمتوفاة التي كان نداها ذنبها الوحيد، والكرم من الفضائل التي لا تُذمُّ بل إنها تُحمد في المرء. لذا فقد كانت تعمل على تناسي المعروف ولا تفاخر أو تتظاهر به، لأنه ملكة نفسية فيها، ولهذا فتعداد إحسانها، في نظرها، كالإسراف في شتمها.

(٣) لقد كان همّ المتوفاة حبّ العيش، لا للعيش ذاته، بل لأنه درب يودي بالمرء إلى المعالي والسؤدد، وهي لا ترغب العيش حبًّا بالحياة التي يتشارك بها كلّ المخلوقات من بشر عاديين وحيوانات.

(٤) لقد ظنّ الدافن أنه يدفن جسداً تعطّلت فيه كلّ القوى، والحقيقة أن المتوفاة حملت معها إلى آخرتها تقًى وعفافاً ومجداً وبراً وكلّ ما توفّر فيها من فضائل أخلاقية عالية.

(٥) لقد جمعت المتوفاة على السواء صفات الرجال التي يفتخرون بها كالسعي في طلب المعالي، ومساعدة الفقراء وحماية الضعفاء، فضلاً عن عفاف النسوة ورقة طباعهن ودماثة أخلاقهن.

(٦) لبّه: أجبه: إنها أخت ركن الدولة وعمّة عضد الدولة النافذ الكلمة والدّاعي لنفسه، يأتمر بأمره جيش من المحاربين، ويلبّونه عند الحاجة للقتال.

(٧) يفاضل الشاعر بين الأب والابن، ولقد فاق الابن عضد الدولة أباه ركن الدولة، =

وَمَـــنْ بَـــنُـــوهُ زَيْـــنُ آبَـــائِـــهِ
كَـأَنَّـهَـا الـنَّـوْرُ عَـلَـى قُـضْـبِـهِ[١]
فَـخْـراً لِـلدَهْـرِ أَنْـتَ مِـنْ أَهْـلِـهِ
وَمُـنْـجِـبٍ أَصْـبَـحْـتَ مِـنْ عَـقْـبِـهِ[٢]
إِنَّ الأَسَـى الْـقِـرْنُ فَـلَا تُـحْـبِـهِ
وَسَـيْـفُـكَ الـصَّـبْـرُ فَـلَا تُـنْـبِـهِ[٣]
مَـا كَـانَ عِـنْـدِي أَنَّ بَـدْرَ الـدُّجَـى
يُـوحِـشُـهُ الـمَـفْـقُـودُ مِـنْ شُـهْـبِـهِ[٤]
حَـاشَـاكَ أَنْ تَـضْـعُـفَ عَـنْ حَـمْـلِ مـا
تَـحَـمَّـلَ الـسَّـائِـرُ فِـي كُـتْـبِـهِ[٥]

= وكلاهما لا غنى عنه؛ فعضد الدولة العقل المفكّر للدولة وركن الدولة بمثابة القلب النابض للدولة. وكلاهما لا بدّ منه لقيام الدولة.

(١) النّوْر: ضرب من الزهور، القضب: الواحد قضيب. يجعل الشاعر أبناء عضد الدولة مفخرة آبائه لما هم عليه من فضائل خلقية ومَلَكات نفسية، ولكنهم لا يفضلون أباهم، فهو الأصل وهم الفرع، منه يأخذون وبه يقتدرون.

(٢) المنجب: من يلد النجباء المتفوّقين. العقب: الأبناء. إن عضد الدولة مفخرة ذلك الزمن، فهو من نجباء عصره، وهو فخر أبيه، وبه يفخر. لأنه من عقبه.

(٣) الأسى: الحزن. القرن: المماثل في الصفات والعمر. نبا السيف: كلّ فلم يقطع. يخاطب الشاعر عضد الدولة على أمل أن يخفّف من وقع الحدث الأليم عليه، وهو من هو في عالم الأزمات والأحداث الجِسام؛ فالحزن لا بدّ منه، ولكن أيضاً لا بدّ من مغالبته وقهره بالصبر وتقبل الأمر، فليس بيد المرء حلّ آخر سواه.

(٤) يجعل الشاعر ممدوحه بدراً ينير ظلمات الحياة بضوئه، إنه يطل على الشهب وهم أقرباؤه بحمايته ورعايته، فليس من الضروري أن يُثقل كاهله فقد أحد أفراد أسرته.

(٥) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٤٩. حاشا: استثنى. يثير الشاعر بممدوحه القدرة على تحمّل النبأ، لذا فهو يستثني أن يضعف وتنهار قوّته لدى سماع الخبر، ولقد احتمله ناقله رغم شدّة وقعه عليه، فالأوجب أن يكون ممدوحه أقدر على ذلك من غيره لما يتمتّع به من سمات الرجولة الحقّة.

وَقَدْ حَمَلْتَ الثِّقْلَ مِنْ قَبْلِهِ
فَأَغْنَتِ الشِّدَّةُ عَنْ سَحْبِهِ(١)

يَدْخُلُ صَبْرُ المَرْءِ فِي مَدْحِهِ
وَيَدْخُلُ ٱلإِشْفَاقُ فِي ثَلْبِهِ(٢)

مِثْلُكَ يَثْنِي الْحُزْنَ عَنْ صَوْبِهِ
وَيَسْتَرِدُّ الدَّمْعَ عَنْ غَرْبِهِ(٣)

إِيمَا لِإِبْقَاءٍ عَلَى فَضْلِهِ
إِيمَا لِتَسْلِيمٍ إِلَى رَبِّهِ(٤)

وَلَمْ أَقُلْ مِثْلُكَ أَعْنِي بِهِ
سِوَاكَ يَا فَرْدَاً بِلَا مُشْبِهِ(٥)

ما أنصف القوم ضبه [المجتث]

مَا أَنْصَفَ الْقَوْمُ ضَبَّهْ
وَأُمُّهُ الطُّرْطُبَّهْ(٦)

---

(١) يذكر الشاعر ممدوحه بأنّه ذو تجربة مع المصائب والويلات؛ فقد تحمّل أثقالاً أشدّ وطأة ممّا أثاره هذا الحادث، وهو محتمل الوقوع في كل وقت وزمان، ولقد كان شديداً فلم يعجز عن حمله لصبره.

(٢) الإشفاق: الخوف. الثلب: ذكر المساوئ والذمّ. يرى الشاعر أن الصبر من علائم الرجولة التي يمدح من أجلها البشر لجلدهم وامتصاصهم الصدمات، وأما الجزع والخوف فمن مساوئ ضعاف الرجال، ولذا يُعاب ذلك فيهم.

(٣) الصوب: الناحية. الغرب: مجرى الدمع. يثير الشاعر في ممدوحه إحساس الرجولة، فهو قادر على التغلّب على حزنه، ودواء ذلك الصبر، لذا يطلب أن يمسك نفسه ويمنعها عن البكاء.

(٤) إيما: لغة في إمّا. والمعول على بقاء الفضل في تماسك المرء أمام المصائب واحتمالها، وفي ذلك تسليم لإرادة خالقه ممَّا يدلّ على الورع والتقوى، فيوفى على ذلك الجزاء الأوفى.

(٥) ورد البيت في دلائل الإعجاز، للجرجاني: ٩٢. إن الشاعر يقصد ممدوحه دون سواه، فيعزيه لعلمه أنه الرجل الذي يتمتّع بخاصية الرجولة الحقة.
ـ ملاحظة: يتّضح أن المتنبي لا يُحسن المراثي، لغلبة العقل على المشاعر لديه، ويبدو المدح أكثر دلالة على ملكة المدح لديه من الرثاء.

(٦) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ٩٥. الطرطبة: القصيرة الضخمة. =